

ومن ذلك أمره لأربعة من صدور علماء دولته وهم القاضي أبو العباس أحمد ابن شيخ الجماعة الشيخ التاويد ابن سودة والشيخ عبد القادر ابن شقرون والشيخ محمد بن أحمد بنيس والشيخ الطيبين عبد المجيد بن كيران بشرح الأربعين حديثا النووية كل واحد منهم يقوم بشرح ربع منها، فامثلوا، وشروحهم متداولة بين سائر الطبقات طبعت بفاس عام تسعة وثلاثمائة وألف، وكم أبرزت من تأليف بأوامر وجلية من نفائس الفوائد العلمية بإشارته الزكية، أثابه الله بالرحمة والغفران.

السلطان أبو زيد عبد الرحمن بن هشام

ولد عام ١٢٠٤ أربعة ومائتين وألف.

وبويع له بفاس بعهد من عمه السلطان سليمان في سادس وعشري ١٦ ربيع الأول عام ١٢٣٨ ثمانية وثلاثين ومائتين وألف موافق ١١ دجنبر سنة ١٨٢٢.

وتوفي بمكناسة الزيتون يوم الإثنين تاسع وعشري محرم فاتح عام ستة وسبعين ومائتين وألف موافق ٢٨ غشت سنة ١٨٥٩ وصلى عليه قاضي الجماعة بالحضرة المكناسية شيخه أبو عيسى المهدي ابن سودة المري القرشي ودفن ليلا بضريح جده أبي الأملك المولى إسماعيل رحمهما الله.

كان له اعتناء بالعلم وذويه شأن سلفه الصالح واهتمام كبير بتنظيم التعليم وترتيب الدروس وهو ثاني المؤسسين لنظام التدريس بالقرويين في الجملة، وقفت له على ظهور في الموضوع أصدره لقاضي فاس إذ ذاك الشريف مولاي عبد الهادي هذا نصه:

الحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه (وبعد الطابع بداخله: عبد الرحمن بن هشام الله وليه):

ولد عمنا الأرضي الفقيه القاضي مولاي عبد الهادي وفقك الله وسلام عليك ورحمت الله وبركاته وبعد فقد بلغنا توافر طلبة العلم على العادة، وجدهم في الطلب

غير أنه قل التحصيل والإفادة، وذلك لمخالفة الفقهاء في إقرائهم عادة الشيوخ، وإعراضهم عما ينتج التحصيل والرسوخ، فإن الفقيه يبقى في سلكة سيدي خليل نحو العشر سنين وفي الألفية العامين والثلاثة لكثرة ما يجلب من الأقوال الشاذة، والمعاني الغريبة الفاذاة، وكثرة التشعيب بالاعتراضات وردها، ومناقشة الألفاظ وعدها، ويخلط على المتعلم حتى لا يدري الصحيح من السقيم، ولا المنتج من العقيم، وفي ذلك تضييع الأعمار التي هي أنفس المتاجر بلا فائدة، وتعمير الأوقات التي يرتجى نفعها بلا عائدة، فتجد الطالب يرحل في طلب العلم من بلاده، ويتغرب عن أهله وأولاده، ويقيم المدة المتطاولة لا يحصل مع كثرة دؤبه على طائل، ولا يقف على محصول ولا حاصل، فترى الفقهاء يكثررون على المبتدي من نقول الحواشي والاعتراضات، وينوعون الأقوال والعبارات، حتى لا يلغري ما يمسك، ولا ي سبيل يسلك، ويقوم من مجلس الدرس أجهل مما كان، ولا يجد زيادة مع بلوغه في نفسه الإمكان، وهذا يؤدي إلى ضياع العلم الذي هو ملاك الدين، ويحمل على عموم الجهل في العالمين، وما هكذا كان يفعل أهل الإفادة والتحرير، الذين يحرصون على نفع طلبة العلم رغبة فيما عند الله من الأجر الكبير، فقد كانوا يسهلون لهم طرق العلم واستفادته، ويرتكبون ما يقرب تحصيل العلم وزيادته، ويتنزلون لعقول الطلبة على قدر إفهامهم، ويحتالون على حصول الفهم والعلم للمتعلمين بلطيف عبارة كلامهم، حتى يحصل اللبيب على مراده في أقرب أوان، ولا يضيع عمره سهلا من غير تحصيل ولا عرفان، إذ كان مقصودهم في ذلك الله ونشر العلم للعلم، لا التصفح والتمشيد الذي يحصل معه الخلل والملل، ولا ينجح معه لذي أرب أمل، وهذا من الأمر الذي يجب التنبيه عليه، ويتأكد في جلب أرباب المناصب الجنوح إليه؛ إذ في الحديث: الدين النصيحة لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المؤمنين وعامتهم، فبوصول كتابنا هذا إليك أجمع المدرسين وأرشدهم لما فيه المنفعة العامة، والفائدة التامة، وهو الاقتصار في

التقرير على حل كلام المؤلفين، وإفهامه للسامعين المتعلمين، مع التنبيه على ما فيه من خطأ وتحريف ومن غير إكثار هذر، ولا تشغيب بترداد اعتراضات وطرر، إذ المقصود هو حصول الفهم والإفادة، والمناقشة في الألفاظ إنما هي لغو وزيادة، وليست لأهل التحرير بعادة. وما تقدم قراءة النحو والبيان والمعقول، إلا لتحصيل الملكة التي يتوصل بها إلى فهم المنقول، فلا ينبغي في الفقه مناقشة الألفاظ، ولا نقل كل ما سوده الحفظ، بل ينبغي الاقتصار على بسط المسائل وفصولها، وتقريبها للفهم بتقرير أصولها، فلا يجاوز الفقيه في سلكة خليل العام وإن طال ففي عامين، ولا يجاوز في الألفية الشهر والشهرين، كما كان يفعل ذلك جهابذة العلم من نقاده بل كانوا يسردون خليلاً في أربعين يوماً والألفية في أقل من ذلك ويحصل الطلبة من ذلك على علوم جمة، ومسائل مهمة، لا يحصلونها في هذا التناطل والتطويل، وعمارة الأوقات بما ليس عليه تعويل، ولينظروا في سيرة من قبلهم في التدريس والإلقاء، ويسلكون ما هو أقرب للتحصيل وأمسّ بتسهيل الفهم والإقراء، فيهديم فليقتدوا، وبأقوالهم فليقتدوا، ليستفيدوا ويفيدوا، ويبدؤوا ويعيدوا، ويحصل الطلبة الغريباء في ذلك على مرادهم، ويدركوا ما يسر الله على قدر استعدادهم، والله ولي التوفيق.

ومن جملة الأمور الموجبة لقصور فهم المتعلمين وعدم نفعهم تقصير مجلس الإلقاء وخفته فلا يجاوز من أطال من الفقهاء الساعة مع أن من رحل للطلب من بلده ونيته تحصيل العلم يستغرق الأوقات، ويعرض عن الراحة واللذات، ولا يكون له غرض إلا في درس أو نظر، ليحصل في مطلوبه على الوطر، ففي الحديث منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب دنيا؛ فينبغي حمل الطلبة على ما هو الأليق بحالهم من الدءوب والإطالة، ومواصلة الطلب وترك البطالة، والسلام وفي ١٢ محرم الحرام فاتح عام ١٢٦١ ص ١٢٦١ من أصله.

ومن آثاره بفاس تحصينها بالآلات الحربية، وجلبه لها من البلاد الأوربية، من ذلك

المدافع الموجودة بدار الآثار الفاسية الكائنة بقصر البطحاء المنقوش فيها بحروف بارزة ما لفظه: (هدية من سلطان فرانصة لسلطان المغرب سنة ١٨٤٦) وفي نقش آخرين هنالك أيضا ما لفظه: (بأمر أمير المؤمنين أيده الله ونصره صنع هذا المدفع السعيد على يد خديمه مصطفى الدكالي رزقه الله رضاه في ٧ جمادى الثانية عام ١٢٦١ ساولنا مشن).

ومنها القبة المعروفة بقبة سيدي الحاج العربي الكائنة في الدار البيضاء المعدة اليوم لنزول المقيم العالم (سفير فرنسا بالمغرب الأقصى) من أبي الجنود، وهي أي القبة، واقعة على الوادي هنالك من الجهة الغربية.

ومنها زيادته في مسجد الضريح الإدريسي عام ١٢٤٠ أربعين ومائتين وألف يدل لذلك ما توجهت به منطقة زليج الأساطين الثلاثة المبنية بالأجر خارج القبة من الجهة الجنوبية في نقش زليج أسود، ولفظه:

انظر بعينك شذور الذهب	لابن هشام المتقى المتخب
مؤسس المجد شريف النسب	(مبارك الاسم أغر للقب)
من يديه زهر المنى يمتنى	في وجهه بدر الهسوي يرتقب
من سره هذا المقام الذي	شيد على التقى للقرب
(شمر ١٢٤٠) لطاعة الاله به	ومد للزوار كف الطلب
فهو الذي يعطي بلامنة	إماننا المنصور سيف الغلب

أشار للتاريخ المذكور بلفظة (شمر) وهي منقوشة في زليجة خضراء أشعارًا بما ذكر.

ويدل له أيضا ما هو مكتوب بوسط المسجد الذي أنشأ حول المشباك المظل لداخل القبة، ولفظه:

هذا مزار ومقام الاحترام
 (ابن هشام) قطب من صلي وصام
 مؤسس الهداء طال واستقام
 وقفت في مزاره قصد استلام
 صنع كل صانع وشي الستام
 مبيئاً لكل حين في ابتهام

قبله بالشفاه وادع للإمام
 شيد من إحسانه هذا المقاه
 من زاره نال المنى حاز المرام
 فراقني البناء في حسن انتظام
 ما كان ذا البناء في مصر والشام
 تاريخه (دوام ملك ابن هشام)

وما هو منقوش عن يمين وشمال الداخل لهذا المسجد من بابه الجديد، ولفظه:
 لأمثال هذا القدر تبنى المآثر
 أتمام (أمير المؤمنين) قواعدي
 فلا زال ما بين سلاطين تآثراً

وترسم في وجه الزمان المفاخر
 (سليبي هشام) عام (جاء البشائر ١٢٤٠)
 كما أنثني بين المساجد نائر

قال أبو القاسم الزباني في عقد الجمان: ابتداء عمله نصره الله (يعني سيدنا الجد المترجم ابن هشام) بتشييد المسجد بضريح مولانا إدريس من الناحية الشرقية الموالية للقبة أكمل به تربيعة المسجد من كل نواحيه ورتب بتلك الزيادة مدرساً وواعظاً وأحزاباً تقبل الله عمله، وبلغه في الدارين قصده وأمله هـ.

ومنها إنشاء سقاية السبيل بحومة النجارين يدل لذلك ما هو منقوش في زليج أعلى قوسها، ولفظه:

خليبي مر بالسبيل لترتوي
 ونحني نفوساً من زلال سقاية
 هنيئاً صامرياً بالفرات شربته
 وبالسري الفضال تاج ملوكتنا
 حليف الندى والعدل والفضل والتقى

بعذب معين من رحيق معتق
 قد أريت بنشره على كل مرتق
 بشعر عروس بالعقيق مطوق
 ونجل (هشام) ذو الصنيع المرونق
 وطود الهدى والحلم كنز الموفق

سليل حماة الدين من بيت متق

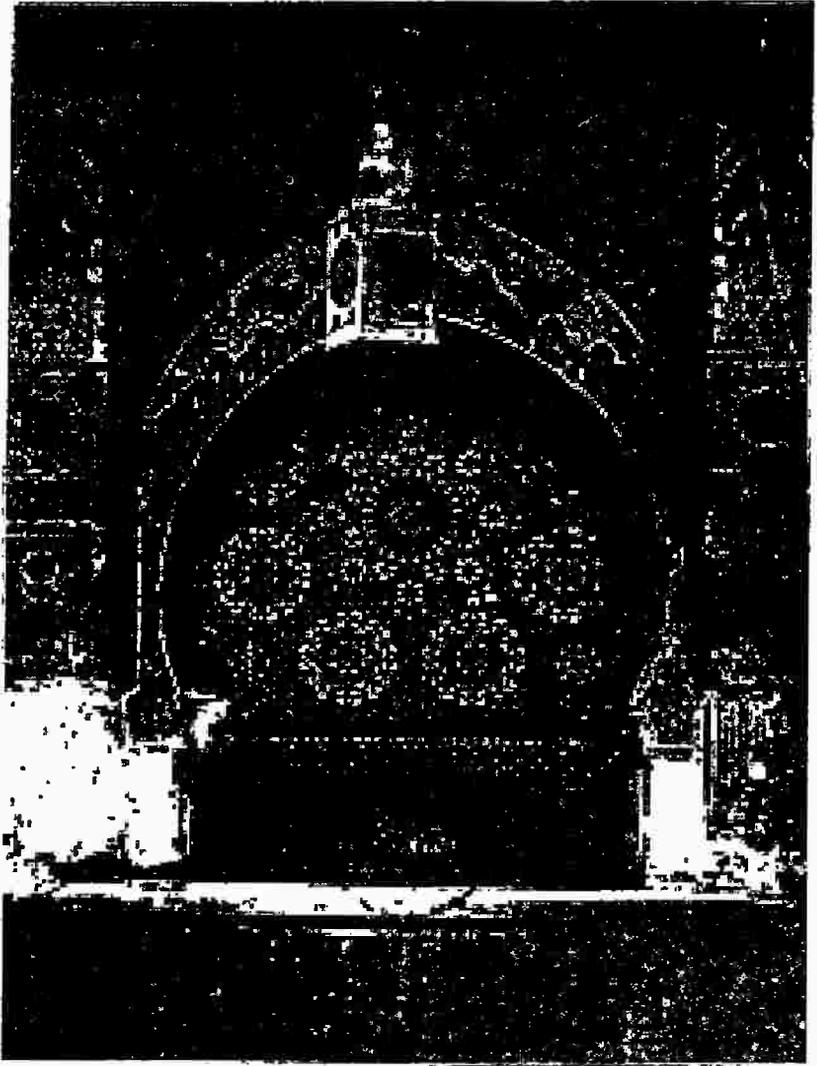
فعمول لأنواع الخيور مصدق

.....الأصيل المحقق

بطلته طابت نفوس بطيب

كريم عفيف فاضل ذي مهابة

.....



٨٤

بغية المدائن

ومنها تجديد البرج الأثري العظيم الذي هو من آثار جده السلطان المولى عبد الله بقصره الذي أسسه بدار دبيغ يدل لذلك ما هو منقوش على بابه في زليج أسود ما عدى الشطر الذي به التاريخ فنقشه في زليج أخضر ولفظه بعد البسملة والصلاة:

يا ناظرًا في بديع صنعني	أجسال طرفًا به وردد
مآثر الجسد في المعالي	مولى ملوك الزمان جسد
مولاي (عبد الرحمن) مولى	محاسني في الأنعام عدد
تاريخ مجدي علاه شاد	(فتح ونصر له تجدد ١٢٥٠)
أطال رب الوري بقاه	مؤيدنا سألنا مسدد

ومنها تأسيس منار زاوية الشيخ أبي محمد عبد القادر بن علي الفاسي شيخ شيوخ العلم في عصره.

ومنها البيوت المعدة لسكنى جيش آل سوس النازل بفاس وهي الواقعة في الجانب الغربي بيطحاء أبي الجنود المصطفة بالجدار المقابل للمسجد الجامع هنالك مع الخزين الذي كان معدًا لخزن علف الدواب السلطانية ومضافاتها واتخذ بعد مدرسه صناعة وقد كان بناء تلك البيوت تحت إشراف باشا المدينة البيضاء فاس الجديدة فرجي أحد وصفان السلطان أبي الربيع سليمان وربي نعمته يدل لذلك ما كتب به الباشا المذكور لوزير الحضرة السلطانية الرحمانية الأكبر أبي عبد الله محمد بن إدريس وإليكم لفظه بعد الحمدلة والصلاة:

«حسبنا الأود الأرضي، الفقيه الاعز المرتضى، كاتب الأوامر الشريفة سيدي محمد بن إدريس رعاك الله وحفظك وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته بوجود مولانا أيده الله وبعد سيدي يرد عليك زمام صائر بناء البيوت لآل سوس بعد ما كنا وجهنا كناش الصائر لمولانا أعزه الله نحبك أن تطالع به علم مولانا أعزه الله، واعلم سيدي أن البناء

أعوزنا في هذا الفصل من أجل المطر وغلاء الجير والجائزة وهذه دور ونوائل بقصبة أبي الجنود كلها معتمرة بالبراني وغير خاف عنك أن القصبة كلها للمخزن فإن ظهر لمولانا أن تقوم على أربابها ويسكن بها ما بقي من آل سوس فذاك وإلا فنظر مولانا أوسع وقد وافق معنا السيد علال الشامي على ذلك، وأعلم سيدي أن عدد المتأهلين من آل سوس ٤٨٥ سكنوا منهم ١٤٥ وبقي بغير سكنى ٣٤٠ دون العزاب منهم وكناش الصائر الذي كنا وجهنا مع الناظر السيد أحمد الشديد لازلنا في انتظاره فنحبك أن تعتني لنا بأمره ووجهه لنا ولا بد ونحب مولانا أعزه الله يأمر الأمين السيد علال الشامي بدفع ما بزمام الصائر الوارد عليك فإن أربابه لا زالوا يطلبوننا به ويرد عليك زمام دور القصبة ونوائلها لتعلم ما فيها من الدور والنوائل وعلى المحبة والمودة والسلام في ١٥ قعدة عام ١٢٦١. وصيف مولانا: فرجي أمنة الله. صح من أصله الموجود بملف أوراق البناءات الرحمانية المحفوظ بمستودع الأوراق الدولية بالحضرة السلطانية بالعاصمة الرباطية، وقد هدت البيوت المشار إليها في هذه الأيام الأخيرة وزيدت في توسعة الفسحة الجديدة التي أعطيت اسم ساحة الباشا محمد بن البغدادي.

ومن ذلك إصلاح حمام القصور الإمامية وغيرها مما يحتاج إلى الإصلاح بها وذلك عام ١٢٦٩ تحت إشراف أمناء العتبة (القصور السلطانية) يدل لذلك ما قرأته في ملف الأوراق المذكورة، وإليكم لفظه:

«أحباءنا أمناء مولانا بالعتبة السعيدة أعاننا الله وإياكم وسلام عليكم ورحمة الله عن خير مولانا أيده الله ونصره وبعد، فيأمركم سيدنا أعزه الله وحفظه أن تصلحوا حمام دار مولانا المنصور بالله وما يأمركم بإصلاحه وصيفه بامسعود فإن سيدنا رعاه الله قدم له الأمر بذلك وأذنه فيه وعلى المحبة والسلام ٤ رمضان ١٢٦٩: موسى بن أحمد لطف الله به».

ومن آثاره سقاية مسد الشرايين يدل لذلك ما هو منقوش بأعلاها، ولفظه:

تسرى حسنا يسر الناظرينا

وأمنح مائي كل الواردينا

.....

.....العز المؤمل والبنينا

شرايبا لئذ للشارينا

.....

لمولاتنا أمير المؤمنيننا

تأمل في بديع حسن صنعي

أزبل صدى وأظفى حر صدر

أجى من حيث به بشر اكا^(١)

.....

فما أسنى سقاية قد سقتنا

نجلت عند (رشدنا) بخير

.....

أشار برشد إلى تاريخ بناتها بالجمل وهو ١٢٥٥.

وفي هذا السلطان قال العلامة الأديب أبو عبد الله محمد بن سميه بن علال

السودي المري المتوفى عام ١٢٨٤ أربعة وثمانين ومائتين وألف:

وملك مصر وشام

لوحضر (ابن هشام)

يكفيك قطر الغمام

حل محل الإمام

فأق ملك الأتنام

عن الهدي بالحسام

فيه جميع المرام

بمثله في الكرام

آياته بالداوم

فكان مسك الختام

كل ملك العراق

فما لهم من مرام

أو فاض بحر نداءه

أو قمام للعدل يوم ما

أمام فضل ولكن

فرد كل مُضل

عز كل مسذل

ما سمح الدهر قط

من أول الدهر تتلى

طابق الاسم المتسمى

